

الحضور الإثنوغرافي في الرواية العراقية المعاصرة – "نبوءة فرعون" لميسلون هادي اختياراً-

Ethnographie presence in the contemporary Iraqi novel "Pharaoh's prophery," by
MaysalonHadi, optionally

أ/د. عبد القار ميلود سلامي

كلية الآداب واللغات جامعة تلمسان-الجزائر

البريد الإلكتروني: skaderaminaanes@gmail.com

د/ سلوى جرجيس النجار

كلية الآداب جامعة كركوك- العراق

البريد الإلكتروني: salwajarjis@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/01/13

تاريخ الاستلام: 2022/01/05

الملخص:

"جاءها المخاض في ليلة كانونية مظلمة، فولدته على سجادة تغطي الأرض في غرفة النوم، وقطعت حبل الخلاص بيديها على ضوء لآلة مكسورة زجاجتها متروسة بالسخام، فلم تر وجهه النوراني التحيف جيداً في تلك اللحظة العصبية ولا رآه أبوه الذي كان يخوض في المياه الطامية بين أرض الكويت وأرض العراق، ولكن زوجات أبيه جنن إليه بعد توقف القصف بين غارة وأخرى، وصدحت صافرة الأمان، ورأيته نائماً في المهد على نور الصباح القادم من النافذة، فقالت واحدة للأخرى: ما أجمله طفلاً لليلة!"

لعل في هذه المسئلة من رواية "نبوءة فرعون" للروائية العراقية المتميزة "ميسلون هادي" ما يعكس مدى توظيف الرواية العراقية للإثنوغرافيا بامتياز، على نحو جعلنا نتخذ، في مداخلتنا التالية، من هذا النموذج المتجزئ، وما جاء على منواله من أمثلة سردية في الرواية الصادرة في طبعة أولى، عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة 2007م مطية للوقوف على الملمح الإثنوغرافي الذي سعت "ميسلون هادي" إلى اعتماد نماذجه في وصف بديع جاء أرشفة لأحداث مهمة عرفها من تاريخ العراق والحرب الكويتية وحصار العراق وسقوط بغداد، ووصفها وصفاً مائزاً قبل السقوط، وذلك بما يحفظ للسرد ماءه، ولتوظيف الحكايات الشعبية من الموروث الشعبي، ومنها ما دار في "بيت بلقيس" و"بيت العراف"، العاكسين للمعتقدات وللعلاقات الاجتماعية السائدة رونقه.

الكلمات المفتاحية: الإثنوغرافيا؛ الرواية العراقية؛ نبوءة فرعون؛ ميسلون هادي.

ABSTRACT:

"She got her parturition on one of the dark December nights, She gave the birth on a carpet covering the floor in the bedroom, and she cut the birth rope of salvation with her hands on the light of a Lantern which its bottle was broken and laden with soot, She did not see his luminous

and thin face very well at that difficult time nor did his father who was wading (fighting) in the tame water which located between the land of Iraq and the land of Kuwait, but his father's wives came to him after the bombing stopped between one raid and another, and the safety whistle rang, and I saw him sleeping in a cradle on the morning light coming from the window, "how beautiful a lantern child is !" she said one to the other".

Perhaps in this extract which is taken from the novel, the prophecy of Pharaoh for the great Iraqi novelist "Maysaloun Hadi". This reflects the extent to which the Iraqi novel uses ethnography with distinction. In a way that made us take our intervention, the following narrative examples are drawn from this fragmented model and the narrative examples that followed in the novel published in the First edition about the Arab Foundation for Studies and Publishing in 2007, a ride to find out the ethnographic feature that Maysaloun Hadi sought to adopt, in a wonderful description, there is an archive of important events that she knew from the history of Iraq, the Kuwaiti war, the siege of Iraq and the fall of Baghdad, and he described it as an excellent description before the fall, in a way that saves the narrative's dignity to employ the Folk tales from folklore, Including what took place in the " The House of ruin." and the "House of Fortune teller", reflecting beliefs and the prevailing social relations elegance.

Keywords: *Ethnographie Iraqi novel; Pharaoh's prophery; Maysalon Hadi.*

مقدمة:

أصبحت الرواية المعاصرة أو الرواية التجريبية مادة دراسة تهبُ نفسها للمتلقى كلياً ممّا يجعلها محلّ دراسة واستنطاق. فالرواية فنّ جمالي له قدرة الإحاطة بموضوعات مختلفة ، فكرياً وجماليّاً ، باعتبارها الجنس الأدبي الذي يمكن المبدع من التعبير بطلاقة وحرية دون قيود. ومن أبرز الموضوعات التي تطرقت لها الرواية سردياً "الحضور الإثنوغرافي" المعبر عن علاقة الفرد بنفسه والعالم من حوله، بما يشكل مدخلا نفسياً واجتماعياً وحضارياً بالنسبة للإنسان، وعلاقته بالطبيعة والمجتمع وتراثه المادي واللامادي، وغيرها من مجالات الحياة اليومية المتنوعة، وهو ما عنه الرواية العراقية المعاصرة بامتياز.

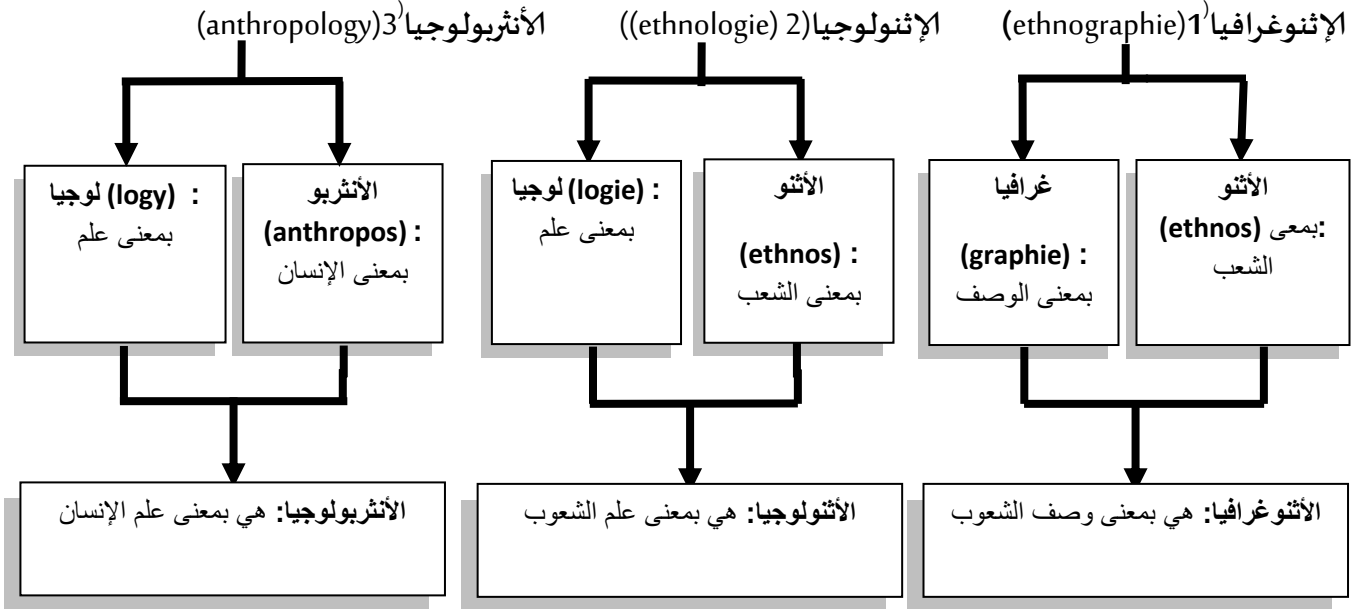
1. المنهج الإثنوغرافي ومميزاته:

يعد المنهج الإثنوغرافي من أهم المناهج التي ظهرت في العصر الحديث، إذ أن كثيراً من الدارسين يرون أن الرحلة هي التي كانت سببا في نشوئه، بوصفه مادة أساسية للوصف الذي هو قوام العمل الرحلي.

وجدير بالتنويه هنا إلى أن كثيراً من الدارسين أشاروا أن الإثنوغرافيا تتداخل والتلازم مع مصطلحين آخرين: هما "الإثنولوجيا والأنثربولوجيا" بالرغم من وجود بعض من الاختلافات، التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً؛ وعلى هذا الأساس يتوجب علينا التعريف بالمصطلحات الثلاثة من حيث اللغة والاصطلاح.

1.1. التعريف اللغوي :

لعلّ المخطط التالي يفي بالمفهوم اللغوي للمصطلحات الثلاثة:



2.1. التعريف الاصطلاحي:

لئن تعددت المفاهيم الخاصة بالمصطلحات الثلاثة واختلفت تعدّد مشارب الباحثين؛ إلّا أنّها لم تخرج عن معانيها اللغوية:

1.2.1. الإثنوغرافيا أو الناسوت:

يرى كثير من الباحثين أن الإثنوغرافيا ظهرت عام 1807م على يد "كامبل"⁽⁴⁾، حيث عدت مرحلة أولية وضرورية لا يمكن الاستغناء عنها في الدراسات الأنثروبولوجية؛ وذلك لأن الإثنوغرافيا تزود الأنثروبولوجيا بمادة مهمة متمثلة في الوصف الدقيق الخاص بالجماعة قيد الدراسة التي تكون بواسطة الملاحظة المباشرة في مدة زمنية محددة يقوم بها باحثون متخصصون، يقول: "هوبل": "الإثنوجرافيا هي ذلك القسم من علم الأنثروبولوجيا الذي يختص بالتسجيل الوصفي للثقافات"⁽⁵⁾، وفي الصدد نفسه يعدّ "كلود ليفي ستروس" أن الناسوت "هو المرحلة الأولى من العمل، وهي مرحلة جمع المعطيات، وهي مرحلة تستوجب القيام عادة بتحقيق ميداني قوامه المعاينة المباشرة."⁽⁶⁾

وهناك من الباحثين الذي يقول: إن مفهوم الإثنوغرافيا هو نفسه مفهوم الإثنولوجيا. سيأتي مفهومها لاحقاً. ولا فرق بينهما، وحجتهم في ذلك أن "في فرنسا يستخدم مصطلح الإثنوغرافيا كبديل لمصطلح الإثنولوجيا"⁽⁷⁾، وإنها "تقوم على الملاحظة وتسجيل المادة الثقافية من الميدان، وكذا وصف أوجه النشاط الثقافي كما يبدو من خلال دراسة الوثائق التاريخية."⁽⁸⁾

ومن الذين تحدثوا عن الإثنوغرافيا وعرفوها في دراساتهم لها "دياس" والباحثين "جاكوبزوستينر". لاشتراكهما في نفس المعنى - "و"مارسيل غربون - الذي يقول بمصطلح الناسوت -؛ فالأول عرفها بقوله: "هي الدراسة الوصفية للثقافات المختلفة أو لقطاعات من ثقافة معينة". (9)، وعرفها الآخران بأنها "الوصف العلمي للأنساق الاقتصادية الاجتماعية والتراث الثقافي ذات المستويات التكنولوجية المختلفة". (10)، أما الأخير فيقول عنها: إنها "الفرع المعرفي الذي يحيط بنشاط الشعوب المادية والروحية ويدرس تقنياتها وأدائها وشرائعها ومؤسساتها السياسية والاقتصادية وفنونها ولغاتها وأعرافها". (11)

إذا من خلال هذه التعريفات الثلاثة يمكن القول: إن الإثنوغرافيا هي دراسة وصفية دقيقة لكل ما يحيط بالإنسان من أسلوبه في الحياة وتقاليد وعاداته وقيمه إلى غير ذلك من أمور تتعلق بحياته؛ إذ أن الوصف والملاحظة أو المعاينة المباشرة هما قواما هذا العلم.

2.2.1. الإثنولوجيا:

مصطلح الإثنولوجيا ظهر لأول مرة بمعناه الواسع عام 1839م، وذلك حين أسس الإنجليزي "إدواردز" جمعية سماها بـ: "الجمعية الإثنولوجية الباريسية" (12)، حيث عدت مرحلة ثانية لا يمكن الاستغناء عنها هي الأخرى - تأتي بعد الإثنوغرافيا - في الدراسات الأنثروبولوجية، وفي هذا الصدد يقول "هوبل": "هي ذلك القسم من الأنثروبولوجيا المختص بتحليل المادة الثقافية وتفسيرها تفسيراً منهجياً". (13)

ومن التعريفات التي قيلت فيها ما أورده كل من "كروبر" و"دياس" والباحثين "جاكوبزوستينر"، فالأول عرفها بقوله: "علم الشعوب وثقافتها، وتاريخ حياتها كجماعات بصرف النظر عن درجة تقدمها". (14)، وأما عند الثاني، فهي: "تمثل الجانب العام والمقارن والتفسيري من علم الإنسان". (15) وعرفها الباحثان الأخيران بأنها: "التحليل العلمي - القائم على الإثنوجرافيا للأنساق الاجتماعية الاقتصادية وللتراث الثقافي للشعوب ذات المستوى التكنولوجي المختلف، ويستهدف الكشف عن أصول، ووظائف، وعمليات التغيير في سماتها الثقافية". (16)

من خلال التعريفات المذكورة يتبين فعلاً أن الإثنولوجيا والإثنوغرافيا تحكمهما علاقة تكامل تتمثل في اشتراكهما في التعريف نفسه. أما فيما يخص نقطة الاختلاف بين الإثنوغرافيا والإثنولوجيا، فلا يمكن لها أن تخرج عن النقطة التي أشار إليها "كلود ليفي ستروس" في كتابه "الأنثروبولوجيا البنيوية" في معرض حديثه عنها بقوله: "الإثنوغرافيا تقوم على مراقبة بعض الجماعات البشرية وتحليلها ووصفها من خلال خصائصها من أجل رد كل منها إلى شكلها البدائي (...). فيما تستخدم الإثنولوجيا الوثائق المقدمة من الإثنوغرافي استخداماً مقارناً". (17).

3.2.1. الأنثروبولوجيا:

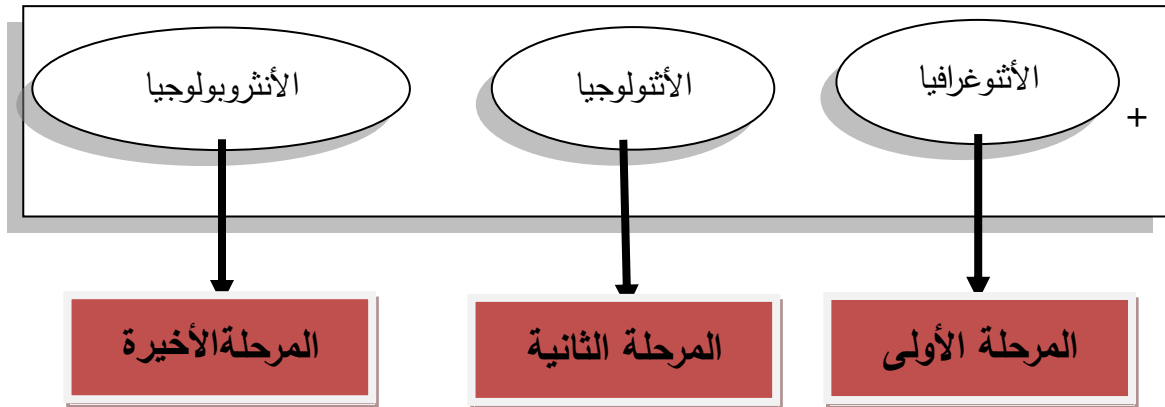
ظهرت الأنثروبولوجيا بمعناها الواسع عام 1841م على يد "رواخ" الذي حدد معناها على النحو التالي: "موضوع الأنثروبولوجيا هو دراسة المؤثرات الخارجية التي يخضع لها العقل، والتغيرات التي تم بمقتضاها" (18)، وذلك باعتبارها فرعاً من فروع دراسة الإنسان الذي ينظر إلى الإنسان من حيث علاقته بمنجزاته، حيث تعددت واختلفت مفاهيمها لدى الدارسين، ومنها ما يلي:

تعريف "كلود ليفي ستروس": "إن الأنثروبولوجيا تهدف إلى معرفة كلية شمولية للإنسان في علاقته بامتداداته التاريخية ومحيطه الجغرافي." (19)

وتعريف كل من "بواس" و"كروبر"، فعند الأول: "تدرس الأنثروبولوجيا الإنسان ككائن اجتماعي، ويشمل موضوع دراستها جميع ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية دون تحديد زمني أو مكاني." (20)، وعند الثاني: "الأنثروبولوجيا هي دراسة جماعات الناس وسلوكهم وإنتاجهم." (21)

ويرى الباحث "مبروك دريدي" أن الأنثروبولوجيا تتكون من قسمين هما: الإثنوغرافيا والإثنولوجيا (22). كما أشرنا سابقاً ..

هذا، ويصعب الفصل بين المصطلحات الثلاثة (الإثنوغرافيا والإثنولوجيا والأنثروبولوجيا)، باعتبار التقارب المفهومي لها، وأيضاً في علاقة التكامل فيما بينهم، بمعنى أن كل واحد منها يستطيع تكميل الآخر، ويمكن تمثيل ذلك بالعملية التالية:



2. المنهج الإثنوغرافي:

بعد عرض مفهوم كل من "المنهج الإثنوغرافيا"، يمكن القول: إنَّ المصطلح الجامع لهما أي المنهج الإثنوغرافي- يحمل دلالة ازدواجية متمثلة في مفهوم كل من: المنهج الذي يعني في أبسط تعريفاته: الطريقة أو مجموعة الطرق التي من خلالها يصل الباحث إلى هدفه المنشود، والإثنوغرافيا التي تدل هي الأخرى في أبسط معانيها على تلك الدراسة الوصفية الدقيقة لكل ما يحيط بالإنسان من أسلوبه في الحياة وتقاليد عاداته وقيمه وكل جوانب حياته معتمدة على الملاحظة المباشرة؛ فعلى هذا الأساس وبعد جمع هذه الثنائية يصبح المنهج الإثنوغرافي في رأينا: هو تلك الطريقة التي يسير عليها الباحث في وصف ودراسة كل ما يحيط بالإنسان من أسلوبه في الحياة وتقاليد عاداته وقيمه وكل جوانب حياته معتمد في ذلك على الملاحظة المباشرة وعلى جمع البيانات.

ويُدعم هذا الرأي الخاص بمجموعة من التعريفات التي تصبّ في نفس معناه، حتى يمكن للقارئ أن يقتنع بهذا الرأي، وحتى يتضح معناه أكثر لديه. علماً بأنّ هذا المنهج واجه مشكلة مصطلحية، تمثلت في تعدد تسمياته لدى الباحثين بعامل سوء ترجمته، فقد سمي بـ: "البحث النوعي أو الكيفي، أو البحث الحقلي، البحث الطبيعي، البحث التفسيري..." (23)

ويعرفه "أوجبو" بقوله: "هو طريقة وأداة لفهم أساليب مجتمع ما، وطرقه في الحياة، من خلال معرفة أفكار أعضائه ومعتقداتهم وقيمهم وسلوكاتهم، وما يصنعونه من أشياء يتعاملون معها، ويتم ذلك عن طريق الملاحظة بالمشاركة في الوضع الطبيعي من جانب الباحث بحيث يقوم هذا المنهج على ركنين أساسيين هما: التحليل النوعي للظاهرة محل الدراسة، والاعتماد على الطبيعة." (24)

وعرفه كل من "سميث" و"ديلامونت" بأنه: "الطريقة التي يتم من خلالها وصف ثقافة مجتمع ما (...). حيث يقوم الباحث بجمع البيانات أو الكلمات أو الصورة ثم يحللها بطريقة استقرائية..." (25)

فمن خلال هذه التعريفات تبدو أهمية هذا المنهج في الأعمال الرحلية؛ لأنه يزودها بمادة تفسيرية تحليلية وصفية لكل ما يحيط بالشعوب الموجودة فيها.

3. مميزات:

يقرّ بعض الباحثين أن المنهج المذكور أعلاه يتميز بمجموعة من الخصائص منها: (26)

- يهدف هذا المنهج إلى فهم السلوك الإنساني دون تحكم مقصود أو غير مقصود.

- يتم في مواقف طبيعية بدراسة السلوك في سياقه الطبيعي.
- يعتمد على الملاحظة المباشرة للباحث.
- يختبر ما يحدث فعلياً دون الاعتماد على آراء مسبقة.
- يعتمد على الجمع المكثف للبيانات يمتد لفترة زمنية قد تطول.
- يعتمد على الوصف الدقيق للأحداث.

4. مستويات حضور الإثنوغرافيا في رواية (نبوءة فرعون)

يقوم المنهج الإثنوغرافي على تقديم وصف دقيق لشعب في مجتمع ما وضمن بيئة زمكانية، ومن خلال مستويات عديدة لاسيما المستوى الثقافي، إلى جانب كل ما له علاقة بأسلوب الحياة لتلك الجماعة.

وتقدم لنا رواية (نبوءة فرعون) للروائية العراقية (ميسلون هادي) كثيراً من مظاهر الحياة اليومية للمجتمع العراقي في بغداد ولعقود متتالية، بغداد التي كانت محطة مهمة للتلاقح الثقافي والمعرفي وصورة مشرقة لأرض العراق الحافل بالمووروث "الشعبي من المعتقدات والعادات والأساطير والحكايات ومن التجارب الإنسانية التي صنعت خبرة متراكمة ضخت في المثل والحكمة وفي خصوصيات التعبير الشعري الذي استوعب أفراحها وأتراحها، وفي التناغم مع الطبيعة المختلفة لإنتاج ألوان من الغناء الذي سجلت فيه جماليات اللهجة وعمق تحسسها الشعوري" (27).

وقد نهلت الروائية (ميسلون هادي) ابنة بلاد الرافدين الكثير من ذلك الإرث وضمته في روايتها، وهي تحاول تقديم صورة واقعية لحياة العراقيين في حقب مهمة من تاريخ العراق، لاسيما ظروف الحرب والحصار، وأثر تلك الظروف على العراقيين على نحو عام، وعلى النساء والأطفال على نحو خاص. وللوقوف على هذه الصورة لا بد من تحديد المستوى الذي سنقف عنده من أجل الكشف عما يمكن قراءته لاسيما ما بين السطور من أجل الوصول إلى مقصدية الروائية.

1.4. المستوى الثقافي:

يعد المستوى الثقافي من المستويات المهمة في أي مجتمع، لأنها تكشف عن مجموعة المعارف والمعتقدات والعادات والتقاليد وغيرها؛ فضلاً عن أنها تؤثر على سلوك الفرد ومواقفه من الحياة أو تجاه مشكلة من مشكلاتها، فهي تُعين على تحديد التوجهات الفردية والجماعية في إطار محدد هو الثقافة. فالثقافة هي "ذلك المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف والعادات وسائر الممكّنات التي يحصل عليها الفرد باعتباره عضواً في المجتمع". (28) وهذه الثقافة لا بد أن تظهر بشكل مترابط متكامل في صيغتها النهائية لتوافق كافة شرائح المجتمع على ما تتضمنه من معارف وعادات وغيرها.

وسنقف عند المستوى الثقافي في الرواية من خلال عدد من المحاور: وهي المعتقد الديني – والعادات والتقاليد – الخبرة الشعبية – المأكل والملبس – الأدب والفنون.

2.4. المعتقد الديني:

كان وما يزال للمعتقد الديني دور بارز في سلوك الفرد وتوجهاته، كونه يمثل نظاماً أو مجموعة من الأفكار والقيم التي تحكم الفرد، وقد شهد الأدب العربي سواء في النصوص النثرية أو الشعرية توظيف النص القرآني وتمثل مبادئ الدين الحنيف وذلك لكون القرآن الكريم مصدراً أساسياً من مصادر التشريع وجزءاً مهماً من الموروث الديني في المجتمعات الإسلامية.

وقد وظفت الكاتبة آيات وسوراً من القرآن الكريم، وجاء التوظيف عندها تارة على شكل قصة (مضمون) كما وجدنا في العنوان الرئيس (نبوءة فرعون) فهذا العنوان يتعالق مع قصة فرعون والتنبؤ بنهايته على يد مولود ذكر، والعنوان بوصفه عتبة نلج من خلالها إلى المتن، فقد جاء موحياً ومتضمناً لأبرز حدث في الرواية، وهو نهاية السلطة الحاكمة في العراق في عام (2003)، والصفحة الأولى بعد العنوان نجد فيها آية (44) من سورة (هود) بسم الله الرحمن الرحيم ((وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)) فهذه الآية تشير في بعدها الدلالي من حيث التوظيف في الرواية إلى انقضاء الأمر بنهاية كل ظالم وطاغية كما كان شأن الكافرين في قصة قوم (نوح) عليه السلام.

وترد في الرواية في مواضع أخرى قراءة آية الكرسي كاملة على لسان بلقيس (أم يحيى) وهي تحاول إبعاد الخوف عنه (29)، وكما نعلم أن هذه الآية آية عظيمة يستعين بها المسلمون في الحفاظ من كل مكروه يمكن أن يقع، وكذلك نلمح الاستعانة بآية من سورة (يس) في تصوير حالة الخوف الذي أحاط بقلب الأم

(بلقيس) من فكرة الموت على ولدها، إذ يرد على لسانها: "متى ما سمعت صيحة الموت التي لا يغطيها صوت فحينذاك فقط يتوجب عليك أن تكف عن الحياة وتنتهي من الوجود، فسلام قولاً من رب رحيم" (30) فعبارة (سلام قولاً من رب رحيم) آية (58) من سورة (يس) وهذه الآية يرددها المسلمون وقت شعورهم بالخوف أو توقع حدث مكروه.

إذن فالرواية تظهر تلك العلاقة الإيجابية بين الدين والفرد، وقوة الدين وسلطته الروحية على الأفراد، فضلاً عن بيان وضوح المعتقد، فالاستعانة بآيات من الذكر الحكيم في المواقف الصعبة يكشف عن النسق الديني في النص، ذلك النسق الذي يتداخل مع الأنساق الأخرى ويعين على تحقيق الاستقرار والسلام لدى الفرد على نحو خاص وفي المجتمع على نحو عام، إلى جانب كونه يشكل جزءاً أساسياً مهماً من تشكيل ثقافة المجتمع.

3.4. العادات والتقاليد الشعبية:

تشغل العادات والتقاليد الشعبية حيزاً كبيراً بين الأنواع الأخرى التي تشكل مجموع الموروث الخاص بمجتمع ما، وتعرف العادات بأنها "أعراف شعبية تتوارثها الأجيال لتصبح جزءاً من همهم الاجتماعي" (31) فهي تمثل ممارسة حياتية يعتقد بها الأفراد لتكون فيما بعد جزءاً من الموروث الثقافي يتم ممارسته في ظل ظروف وإجراءات خاصة.

أما التقاليد الشعبية فهي نوع من السلوكيات التي ينتجها الأفراد بعد أن يتم الاتفاق على ممارستها من قبل مجموعة من الأشخاص، ويتم تناقلها من جيل إلى آخر، من الزمن الماضي إلى الحاضر ثم المستقبل ضمن مجتمع ما، لذا تمثل "العادات والتقاليد الشعبية ظاهرة تاريخية ومعاصرة معاً لأنها تعبر عن مجموع السلوكيات التي يكتسبها ويتوارثها الخلف عن السلف" (32).

من أمثلة العادات والتقاليد الشعبية التي ظهرت في رواية (نبوة فرعون) (صينية زكريا) والوفاء بالنذر، فكما نعلم أن هذه العادة موجودة قديماً عند العراقيين ففي أول يوم أحد من أول أسبوع من شهر شعبان تمارس هذه العادة للاعتقاد بتحقيق الأمنية التي يتم النذر لها في هذا اليوم بالتحديد، وفي حال تحقق المراد يتم الوفاء بالنذر في العام القادم بتهينة صينية مزينة بورق الياس والحلويات والشموع وتوزع على الجيران والأطفال، وأكثر ما يتم النذر له في هذا اليوم ومن قبل النساء تحديداً هو إنجاب طفل لاسيما لمن ليس لديهم أطفال، وهذه العادة أو التقليد سار إلى وقتنا الحاضر، لذلك جسدت الكاتبة في موضوع بلقيس التي نذرت وأشعلت الشموع لتحقيق مرادها في أن ترزق بولد وتسميه (يحيى) وتفتح الرواية بهذه الحادثة حادثة ولادة الطفل (يحيى) ويسميه أفراد العائلة بطفل اللالة، لأنه يولد في ليلة معتمة على ضوء اللالة، وهذه الأداة (اللالة) هو الفانوس الذي كان يستعمل قديماً وقت الظلام ويشعل من خلال استعمال النفط في جميع البيوت. ويأتي ذكر النذر على لسان بلقيس وهي تقول "وضعت دبوساً في شمعته من شموع صينية زكريا، وطلبت يحيى من الله..." (33).

ويتزامن مع موضوع (صينية زكريا) والنذر تقليد آخر هو توزيع (خبز العباس) إذ أن بلقيس كانت قد نذرت بتوزيع (خبز العباس) وفعلاً تقوم (هنية) ضرة بلقيس بمساعدتها في صنع الخبز، إذ يأتي على لسان

السارد: "وفي اليوم التالي نفضت هنية كونية طحين الحصة عن بكرة أبيها، وخبزت أقراصا من الخبر لفتها بالنعناع والريحان والرشاد والمعدنوس ووزعها على بيوت الجيران وبنات البدالة، وكلما سألها أحد عن مناسبة خبز العباس هذا، قالت بلقيس وهي تسرح بنظرها إلى بعيد إنها نذرت يحيى من الله في يوم زكريا...." (34) وهذا التقليد يمارسه العراقيون إلى الوقت الحاضر، ولا يقتصر النذر بتوزيع خبز العباس في يوم زكريا فحسب. وإنما كانوا ومازالوا يندرون ويحددون توزيع خبز العباس كلما جال في بالهم أمنية لم تتحقق كالعثور على شيء مفقود مثلاً، اعتقاداً منهم بالاستجابة لمطلبهم.

فخبز العباس يدخل ضمن التراث الشعبي من حيث كونه نذراً من النذور التي مازالت تمارس في أغلب مدن العراق. وكذلك نجد في الرواية بعض العادات التي تقوم بها النساء في بغداد والمدن الأخرى، منها: ما قامت بها (هنية) من وضع (سرة) يحيى في قطنة صغيرة وحملها معها مبتغية بذلك الوصول إلى باحة كلية الطب ورميها هناك مع دعائها له بأن يكون التوفيق حليفه، ودخول كلية الطب من قسمته (35) وهذه العادة التي تقوم بها النساء في العراق تأتي من قناعتهم بهذه الممارسة السلوكية واعتقادهم بأن وضع سرة الطفل في مكان ما يختارونه مسبقاً سيكون مكان عمله في المستقبل، لذا نجد (هنية) تختار كلية الطب مستشرفة مستقبل يحيى بأن يكون طبيباً في المستقبل، حتى إنها كانت وهي تخبز تدعو بذلك كما يرد على لسان السارد "ثم دورت هنية قرصاً من العجين على مخدة التنور وتركتة مفروشاً عليها وقالت: يا رب يصير طبيب ما عدنا طبيب بالعائلة" (36).

فتوظيف هذه العادات والتقاليد تكشف عن فكرة ترسخ الموروث الشعبي الى جانب انه يجسد ذلك الحضور البارز لبعض الممارسات الحياتية التي اصبحت جزءاً من ثقافة الشعب وتاريخه .

4.4. الخبرة الشعبية (العلاج – الموروث الشعبي)

عرفت الإنسانية منذ وجودها على الأرض خبرات عديدة عن طريق التجربة والممارسة، وتعد الخبرة الشعبية في حقل الموروث الصحي الخاص بطرق العلاج سمة بارزة في الموروث الشعبي، وهذه الخبرة استمدته الإنسان من معرفته بمكونات ومواد الطبيعة وتجاربه في طرق العلاج لاسيما على مستوى الجماعات الشعبية، حتى توارثته الأجيال، والاهتمام بالصحة وقضايا الطب تكشف عن خصوصية ثقافة كل شعب مقارنة بأساليب ثقافة الشعوب الأخرى في حقل الصحة والعلاج، باعتبار طرق العلاج نوعاً من النسق الثقافي.

وقد اختلفت الشعوب في طرق العلاج فمنهم من اقتصر طرق العلاج عندهم على الأعشاب الطبيعية والنباتات، ومنهم من استخدم العلاج بالرقية والتعاوين إلى جانب العلاج بالأعشاب، وكل هذا يدخل ضمن نطاق ما يسمى بالعلاج بالطب التقليدي أو الشعبي.

وتنتفتح الرواية على خبرة شعبية كانت موجودة في تاريخ العراق قديماً ومازالت العوائل أثناء الظروف غير الاعتيادية تستخدمها وهذه الخبرة الشعبية تدخل في مجال العلاج لاسيما الخاصة بالأطفال. وتمهد الكاتبة لتقديم هذه الخبرة بسبب مقنع وفق المنظور الشعبي عند العراقيين وهو بكاء الطفل يحيا و تألمه وصراخه من الألم بعد أن أرضعته أمه (بلقيس) يوم انتهاء أربيعينية والده الشهيد، فتوصي (هنية) ضرة

(بلقيس) بأن تقوم الأم بسقي ولدها (القونداغ) و(السبع مايات) بحسب ما جاء على لسان الراوي: "ضرتها هنية قالت لها إن هذا الألم يأتي من حرقه الحليب وأوصتها بسقيه شراب القونداغ، وبأن تعطيه السبع مايات حتى تهدأ نفسه ويطيب ألمه" (37)، ف(القونداغ) خليط من الماء الساخن مع قليل من السكر يُعطى للطفل الرضيع في حال شح حليب الأم و(السبع مايات) أنواع عديدة من الأعشاب والنباتات تباع عند العطّارين، وكان الناس تشتريها لتصنع منه شراباً يتم إعطاؤه للطفل للتخلص من آلامه، ويأتي ذكر هذه المواد في الرواية كما هو مبين "فاشترت بلقيس له اليانسون والبابونج والهيل والكمون والسعدة والوردماي والهندية ومستكة وطلع النخيل والبطيخ وجمعتهما حسب ما قال لها هنية في إناء مليء بالماء، وغلتها على النار مع ورق الياس والجوري وقشور البرتقال لحين أن فارت وتصاعد منها البخار، ثم راحت تسقي منها يحيى" (38).

فالعلاج بالأعشاب في المجتمع العراقي كان سائداً، عند العراقيين قديماً، ومازال موجوداً وممارساً في كثير من القرى والأرياف، وتم اعتماده وقت الحروب والحصار على العراق، ولعله كان الحل الأنسب في ذلك الوقت لظروف بعض العوائل سواء على المستوى الثقافي أو الاقتصادي إلى جانب العلاج بالطب التقليدي (الشعبي) كان هنالك علاج بالرقية والتعويدة لبعض الحالات التي يمكن أن يعاني منها الإنسان لاسيما الخوف والقلق وحالات المسّ، وقد جسدت الرواية من خلال شخصية بلقيس وابنها يحيى فكرة العلاج بالرقية بالآيات القرآنية إلى جانب استخدام البخور أو الحرمل وحرقتها للتبخير برائحتها لغرض طرد الأرواح الشريرة أو الجن من رأس الأطفال أو الكبار بحسب معتقدات وتصورات العراقيين والعرب عموماً في الوطن العربي، وقد أشارت الروائية إلى هذه الممارسة من خلال الحوار الدائري بين بلقيس وهنية (39).

- هنية ... هنية ان الحرمل؟ هذا الولد يمكن انجذب
- نفضت هنية يديها من الماء ثم مسحت يديها المبللتين ... وقالت:
- ابنك ليس مجنوناً
- قالت بلقيس وهي تشعل عدداً من البخور وتسحب هنية من يدها:
- إني خائفة عليه ... إنه يحفظ من المرة الأولى ويسمع أصواتاً لا نسمعها، ولا يكف عن النظر إلى السماء.

فهذا النص فيه إشارة إلى وجود الجن في رأس يحيى ولا بد من إخراجه والسبيل إلى ذلك هو حرق الحرمل والبخور لأن رائحتهما تطرد الجن، وهذه الأنواع من العطور مازالت تستعمل عند بعض العوائل لطرد الخوف أو الشر عن أبنائهم.

ويتجلى الاهتمام بالموروث الشعبي في هذه الرواية من خلال كثرة الأمثلة المستمدة من العادات والتقاليد الشعبية، لاسيما تلك العادات التي تتعلق بحياة الأسر وتربية الأطفال، إذ استطاعت الكاتبة تقديم صورة جلية عن أبرز العادات والتقاليد الشعبية في العراق، فضلاً عن أنواع الهارات والأعشاب الطبية التي تشكل ملمحاً مهماً إلى الطب البديل في الموروث العراقي كنسق ثقافي يحقق نوعاً من التفاعل الإيجابي بين الصحة والمرض وطرق العلاج وبين الثقافة السائدة، إلى جانب إبراز أهمية بعض الأماكن كسبيل من سبل العلاج من خلال تسليط الضوء على الأماكن المهمة في العراق من وجهة الموروث العراقي مثل نهر دجلة

ومسجد براثا، وهذا الأمر انما يحيل الى نوع من الاعتقاد بقدسية الاماكن ضمن الموروث الشعبي العراقي وأثرها على الحالة الصحية في حال الاصابة بالمرض.

5.4. المأكّل والملبس:

لعل من الأمور التي تبرز في وصف الشعوب في أدق تفاصيلها تكمن في ما تأكله أو تلبسه تلك الشعوب، لاسيما أن المأكّل والملبس يعد نوعاً من الانساق الثقافية المهمة التي تشكل خصوصية لثقافة الشعب، وقد نجحت الروائية في تقديم صورة شاملة عن الشعب العراقي في مختلف جوانب الحياة الإنسانية وتفاصيلها الدقيقة فمن المأكولات العراقية التي تم ذكرها في الرواية (الباذنجان المقلي، الفاصوليا، الدولة، عدس، شلغم، أصابع التمر، شرائح القمر الدين)(40) وهذه الأكلات من الأكلات الشائعة في العراق، إلى جانب إنها تتوافر في كل الظروف، وقد استعان بها العراقيون وقت الحصار لقلّة تكلفة هذه الأطعمة من جهة وكونها من الأطعمة المحببة لديهم من جهة أخرى، فذكر هذه الأطعمة بالذات تجسد اهتمام الكاتبة بإظهار التفاصيل التي لها علاقة بثقافة شعبها .

إلى جانب هذه الأطعمة من جهة تقدم الكاتبة وصفاً للأدوات المستعملة في صنع الخبز العراقي وطريقة إعداده، إذ ورد ذكر هذه المسائل في أكثر من موضع من النص الروائي مثل: "تقطيع عجّين الخبز وسجّره في التنور"(41)، و"مخدة التنور – ملقط معدني"(42).

فالتنور نوع من أنواع الفرن لصنع الخبز، وكان التنور قديماً يصنع من الطين، لكن مع تقدم الزمن بدأ التحول إلى صناعة التنور الحديدي الغازي، ومن أدوات التنور (مخدة التنور) التي تكون مصنوعة من القطن أو الأقمشة القديمة مع قطعة حصير وتغلف بقماش قطني، وهذه المخدة تستخدم لنقل عجّين الخبز بعد فردّه على المخدة إلى داخل التنور لإلصاق العجينة بالتنور، أما الملقط المعدني فهو أداة من المعدن (الحديد) تستعمل لإخراج الخبز الحار من التنور، وما زالت هذه الأدوات موجودة وتستخدم عند العراقيين إلى يومنا هذا.

أما الملابس: فقد وردت في الرواية ذكر ملابس البيت وملابس المدرسة، أو الملابس الخاصة بالعمل، مثل: التنورة، البدلة، ربطة العنق(43).

فالإشارة إلى ذكر أنواع الطعام أو الملابس تعكس المستوى الثقافي والاقتصادي، وتداخل هذه المستويات مع بعضها في تشكيل صورة واضحة عن ثقافة الشعوب.

6.4. الموروث الأدبي:

تميزت رواية (نبوءة فرعون) بخاصية الانفتاح على الفنون والأنواع الأدبية الأخرى، فتداخلت مع فنون وأنواع أدبية تداخلاً حتى بدت الرواية عالماً قائماً على التنوع الثقافي من دون انصهار نوع في الآخر أو إلغاء حدوده، وإنما دخلت في علاقة تفاعلية أعانت في الدلالة على الفكرة أو المقصدية الكلية للكاتبة، فضلاً عن إضفاء "سمة الشعرية على الرواية التي ليس موضوعها النص الواحد بل الشعر المتعدد الرؤى"(44).

وكما نعلم أن الروائية (ميسلون هادي) قد نشأت في حاضنة الثقافة العراقية، واستمدت منها الكثير، ووظفت بعضها من ذلك الموروث الأدبي في نصوصها، لاسيما نص الرواية (مادة البحث)، ومن ذلك مثلاً:

7.4. الأمثال الشعبية:

تعد الأمثال الشعبية جزءاً من التراث الشعبي (الثقافي)، وأسلوباً تعبيرياً للدلالة على ملامح التفكير وأنواع القيم عند الشعوب، وذلك لصلتها الوثيقة بحياة الفرد والجماعة، وتعبيرها عن منظومة القيم وخلاصة التجارب الإنسانية في بيئة ما لتعكس من خلال ذلك جوانب الحياة المختلفة لمجتمع من المجتمعات.

وكانت للأمثال الشعبية حضوراً طيباً في رواية (نبوءة فرعون) وقد جسدت سلوكيات الإنسان في بعض مراحل الحياة والمواقف المختلفة، إلى جانب إبراز مدى تأثيرها على توجهات الفرد، وقد رصدنا عدداً من الأمثلة الشعبية التي وردت في الرواية، منها المثل القائل: (ألج من الخنفساء) (45) ورد هذا المثل على لسان (هنية) ضرة بلقيس في موضعين من الرواية مرة حين وصفت عناد الطفل (يحيى) حين تشبّث بالمرأة المكسورة أثناء محاولة توفيق أخذها منه كي لا يجرح نفسه (46). ومرة حين عاندت (شاكرين) أخت (يحيى) في بعض تصرفاتها مع بلقيس، فوصفتها (هنية) الأم قائلة: "هذه عنادها عناد الخنفساء" (47) وهذا المثل يضرب لمن يصدر منه فعل المعاندة، ولعل ورود المثل في موضعين لوصف طفلين بالعناد يوحي إلى أن الكاتبة وكأنما أرادت أن تشير إلى أن صفة العناد قد يكون لصيقاً ببعض الأطفال أكثر من الكبار في العمر، فضلاً عن أن هذا المثل قد ورد في الشعر العربي القديم في قول خلف الأحمر:

أَشْدُّ لَجَاجاً مِنَ الْخُنْفُسَاءِ وَأَزْهَى هِيَ إِذَا مَا مَشَى مِنْ غُرَابٍ

إذ يضرب هذا المثل لمن يصدر منه المعاندة واللجاج بكثرة (48) حاله حال "الخنفساء إذا أنخيت عادت وكلما رمى بها رجعت مستمرة في أرجائها" (49).

فضلاً عن ذلك فإن استخدام كلمة (المرأة) تكررت في الرواية من زاويتين فتارة من خلال اظهار الطفل يحيى مولعاً بحمل المرأة ومعاندته ببقاء المرأة معه وتارة حين يتم تسليط الضوء على ابن المسؤول في السلطة الذي يكرر سؤالاً واحداً على طول مسار الرواية يتضمن السؤال الموجه الى امرأة الجدار عن اقوى الرجال , فالمرأة هنا تمثل حقيقة الوضع القائم وتعكس النسق المضمر الذي ارادت الكاتبة الكشف عنه، والذي تمثل في تلك العلاقة بين السلطة والشعب , الى جانب الولوج الى منطقة اللاوعي عند الشخصية التي تظهر وهي تحاور المرأة .

ومن الأمثلة أيضاً، المثل القائل (رأينا النجوم في عز الظهر) وقد ورد هذا المثل على لسان (هنية) حين سأل (يحيى) عن النجوم التي تظهر في الليل، وتكرار ظاهرة النهار والليل، عندها قالت:

"نحن رأينا النجوم في عزّ الظهر، وليس في الليل فقط" (50) وهذا المثل يضرب للتعبير عن قساوة الظروف وتحمل الإنسان المصاعب، لذا جاء هذا المثل مناسباً معبراً عن معاناة العراقيين وقساوة الظروف

أيام الحصار الاقتصادي الجائر على العراق من قبل أمريكا في التسعينيات، وقد استعمل هذا المثل في كثير من المجتمعات للدلالة على تحمل الأمور الصعبة والقاسية، والتي قد تصل إلى حد الاستحالة في المعاناة والصبر على ذلك.

وقد تضمنت الرواية أمثالا عديدة لها مناسبتها وموضوعها من الرواية.

8.4. الشعر والغناء:

سعت الكاتبة إلى استدعاء الشعر والغناء في روايتها للمزج بين الشعر والنثر بهدف إضفاء بعض الخصائص التي تعين على انفتاح نصها الروائي على النصوص الأخرى، إلى جانب أن النصوص التي وظفتها كانت محملة بدلالات قصصية إلهية لغرض تطوير الحدث أو وصف حال الشخصية، إلى جانب أن هذه المقاطع الشعرية والغنائية تمثل نسقا ثقافيا تكشف عن حب واهتمام العراقيين بالموروث الشعري والغنائي، فضلا عن النسق المضمير الذي سعت الكاتبة إلى التلميح أو الإشارة إليه، من أمثلة ذلك:

نجد في الصفحات الأولى من الرواية ترنيمة على لسان أم يحيى وهي تحاول أن تعينه على النوم بعد أن سقته شراب السبع مايات "عندئذ تهدهده بلقيس وتطبطب على كفته وتجلب له النعاس بترنيمة تقول:

دِلِّول يَمَّة يالولد يبني دِلِّول عدوُّك عليل وساكن الجول (51)

هذه الترنيمة معروفة في التراث العراقي ومتداولة من قبل الأمهات العراقيات أثناء محاولتهن مساعدة الأطفال على النوم، وترديد الأم لهذه الترنيمة تأتي في محاولة منها لبث السكينة والأمان كي : يخلد الطفل إلى النوم من دون أي خوف، وهذا المقطع الذي يبدأ "بكلمة (دِّلِّول)- هي لازمة استهلال يقال - كما يشير الاستاذ الدكتور فاضل عبود التميمي في بحثه عن الموروث الشعبي - إلى أن أصلها سومري تقدم لمضمون القصيدة الشعبية التي تتمنى الأم لوليدها النوم الهانئ، في ظل مرض عدوّه" (52). وهنا وظفت الروائية هذا النص (الترنيمة) للإشارة إلى بعدها الدلالي في مضمون الرواية، أي أنها تتمنى النوم الهادئ في ظل وجود عدو بعيد ومريض، وهذا الوصف للعدو يرمز إلى ضعف العدو وبعد شره عنه، إلا أنه مازال حيًا، فهي تتمنى السلام الدائم لولدها، لاسيما وأن الأحداث القادمة ستكشف عن التهديد الذي يتعرض له الإنسان العراقي في ظل الحروب والظروف القاسية وخصوصاً الطفل العراقي، فالكاتبة استطاعت من خلال هذا المقطع الكشف عن النسق المضمير المتمثل بنتائج الحروب وآلام الفقد والغربة .

وللشعر العربي الفصيح حضور في ثنايا المتن الروائي، إذ نجد بعض المقاطع الشعرية على لسان الشاب (توفيق) ابن (هنية)، لاسيما حين يكون لوحده ويفكر في الشابة (ملائكة) ابنة الجيران، فهو تارة يردد الأبيات ويؤديها على شكل مقام كما هو مبين (53):

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ

أَيَا جَارَتَا هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي

وتارة يؤدي الأبيات على شكل أغنية (54):

مَعَاذَ الْهَوَى مَا ذُقْتَ طَارِقَةَ النَّوَى
وَلَا خَطَرْتَ مِنْكَ الْهُمُومُ بِبَالٍ
أَتَحْمِلُ مَحْزُونَ الْفُؤَادِ قَوَادِمُ
عَلَى غُصْنِ نَائِي الْمَسَافَةِ عَالٍ
أَيَا جَارَتَا مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا
تَعَالَى أَقَاسِمُكَ الْهُمُومَ تَعَالَى
تَعَالَى تَرَى رَوْحاً لَدَيَّ ضَعِيفَةً
تَرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذِّبُ بَالٍ
أَيُضْحِكُ مَأْسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةً
وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَيَنْدِبُ سَالٍ
لَقَدْ كُنْتُ أَوَّلَى مِنْكَ بِالدَّمْعِ مُقْلَةً
وَلَكِنَّ دَمْعِي فِي الْخَوَادِثِ غَالٍ

وتستعين الروائية بهذه الأبيات التي تتناسب مع حال توفيق بعض الشيء، لاسيما أنها تصفه على لسان السارد من حيث مراقبته للفتاة في حديقة منزلها وفي السطح وتحديداً حين تغيب ويحضر الأب إلى الحديقة: "فيذوب قلب توفيق يصير ماءً، ويدور رأسه ويصير هواءً، وينتقل الصمت بأكمله من الكون إلى الحديقة، وينتقل الورد بأكمله من الحديقة إلى الكون، يصير السطح جنة عندما تصعد ملائكة، فإذا ما خرج أبوها عبد الملك إلى الحديقة غابت الملائكة" (55).

وتوظيف هذه الأبيات لم يأت لهذا الغرض فحسب، بل للاحتفاء بالموروث الشعري العربي، إذ أن هذه الأبيات للشاعر أبي فراس الحمداني، والتي نظمها في فترة أسره عند الروم، فضلاً عن أن هذه القصيدة غناها المطرب العراقي (ناظم الغزالي) صاحب الصوت الشجي الذي كان له تأثير كبير على الجمهور العراقي والعربي على نحو عام، فالكاتبة بهذا قطعت السرد الروائي بالسرد الشعري الغنائي ذات المرجع الثقافي الشعبي لتثبت للرواية تداخلها وانفتاحها على الفنون والأنواع الأخرى من النصوص الكتابية والشفاهية.

كما أخذت الأغاني الشعبية حيزاً من الرواية إذ أخذت الروائية مقاطع من الأغاني باللغة العامية مثل أغاني المطربة (عفيفة إسكندر) التي تميزت بصوتها الجميل وأدائها المتميز هذا بالنسبة لأغاني الشباب، ولم تقتصر الروائية على ذلك بل حاولت أن توظف من الموروث العراقي بعض الأناشيد الخاصة بالأطفال العراقيين ممثلة في أغنية " طلعت الشميسة

على كبر عيشه
عيشه بنت الباشا
تلعب بالخرخاشة
صاح الديك في البستان
الله ينصر السلطان" (56)

وهذه الأغنية من الأغاني التي كان الأطفال يرددونها في أثناء اللعب، وهنا وظفتها الكاتبة للإشارة إلى الوضع الراهن آنذاك.

ولعل محاولة الكاتبة استدعاء مقاطع الشعر الفصيح أو الغناء الشعبي ومزجها بالرواية لم يكن عبثاً أو فائضاً على الرواية، وإنما كانت محاولة طيبة في تسليط الضوء على الموروث العراقي ومدى إمكانية المزج بين النص الروائي والأنواع الأخرى لاسيما الشعر والغناء، فضلاً عن التأكيد على حضور هذا الموروث في الذاكرة العراقية إلى جانب أنها كانت محملة بإشارات إلى بعض الأحداث القادمة أو تعبر عن حال إحدى الشخصيات.

9.4. الحكايات الشعبية (الموروث السردية)

لا عجب أن نجد الحكايات الشعبية وقد تضمنت داخل المتن الروائي لاسيما وأن الروائية استعانت بكل أشكال الموروث الشعبي، لذا كانت للنصوص السردية من الحكايات حضوراً متميزاً في ثنايا النص الروائي، من أهمها: حكايات ألف ليلة وليلة والحكايات الشعبية من الكتب الأخرى، مثال تلك الحكايات:

"وروت بلقيس قصة من قصص ألف ليلة وليلة روتها لها أمها وهي صغيرة عن رجل قالت اسمه بلوقيا له صاحب اسمه عفان، عاش قبل زمان محمد (صلى الله عليه وسلم) وأراد ان يكون سائحا في الزمان حتى يجتمع به الرسول.... الخ" (57) وهذه الحكاية تتعالق مع حكاية (ملكة الحيّات) في الليلة (484) وحكاية بلوقيا في الليلة (486) (58)، والتي تستمر إلى الليلة (490) من حيث المضمون والحكاية المقتبسة. ونرى أنها وظفت هذه الحكاية وغيرها من الحكايات للإشارة إلى ما سيحدث ليحيا في نهاية الرواية، لاسيما وأنّ يحيا يختفي في اليوم التالي بعد رؤية الحيّة تحت السجادة في بيتهم، ويقال أنّ الحية كانت تتبعه أثناء خروجه من البيت بحسب رواية شخصية (كحيلة).

وهذا المشهد الذي جاء متوازياً مع قصة بلوقيا انما يظهر ذلك التعالق النصي في المتن ، فضلاً عن توظيف (الحيّة) رمزا للخطر المتمثل بالعدو.

وترد في الرواية قصة (حسين الصياد الذي خطفته السعلاة) (59) وهي من الحكايات الشعبية المترسخة في ذاكرة العراقيين إلى جانب حكايات أخرى مقتبسة من أصول غربية، مثل حكاية (ليلي والذئب) و(شجرة العميان) و(التاجر والعفريت) و(قطر الندى والأقزام السبعة) و(العارف) واغلب هذه القصص تنتهي على لسان سارده بعبارة مثل (كل شيء مقدر ومكتوب) و(أمن بالقدر وأدرك أن المقدر كائن)، وكأنها – (الروائية) – أرادت ان تحيل إلى فكرة القضاء والقدر من خلال هذه الحكايات التي قدمتها في آخر جزء من الرواية، ووظفتها لترسيخ فكرة ان النبوءة بنهاية (فرعون) – نهاية السلطة – نهاية الطغيان والفساد، قائمة لا بد منها إلى جانب أنها أرادت ان تعبر عن حالة القلق من الحروب والموت، والخوف من الفقد والغياب من خلال رجوعها إلى التراث الذي يمثل الهوية و"الذاكرة الانتمائية التي تكمن في وعي الكاتبة ولا وعيها وترتبط بالسلوك الحياتي فهي ذاكرة تتمسك بالغياب حتى توظفه في سياقات الحياة" (60) فالتراث تمثل الهوية والوعي الجمعي لمجتمع ما.

10.4. المستوى الاجتماعي وصوره:

إن دراسة أي نص من النصوص في ضوء الأنثوغرافيا لا يقتصر على دراسة مستوى دون الآخر، وذلك لاشتراك جميع المستويات في تقديم وصف دقيق لحياة شعب داخل مجتمع ما، إلى جانب أنه لا يمكن الفصل بينها، وذلك لارتباط بعضها بالآخر، إذ أن موضوع الفصل بين ما يحكم السلوك الإبداعي من قوانين في حقل المستوى الثقافي والاجتماعي أو الاقتصادي أمر صعب لا يمكن تحقيقه (61).

لذا سنقف عند المستوى الاجتماعي الذي هو وثيق الصلة بالمستوى الاقتصادي والثقافي فضلاً عن الكلي من أجل تكملة الصورة التي أرادت الكاتبة أن تقدمها عن شعبها ووطنها. عن مدينتها بغداد - في مراحل تاريخية تعد من أقسى الفترات التي مرت بها تلك المدينة وانعكاس ذلك كله على حياة الشعب لا سيما النساء والأطفال والعلاقات الاجتماعية والقيم والعادات والتقاليد.

فقد برزت العلاقات الاجتماعية في الرواية مع افتتاحية الرواية وولادة الطفل (يحيى) داخل أسرة كبيرة - (أب) غائب - وحضور الأم وزوجات الأب والأخوة من زوجات الأب والاحتفاء بالطفل بل والاهتمام به لا سيما من زوجة الأب (هنية) التي كانت تحبه وهو يحبها أكثر من أمه كما في وصف السارد "فضحك يحيى وطابت نفسه ومد يديه لهنية زوجة أبيه التي كان يحبها أكبر من أمه، حتى تحمله من على الأرض بعيداً عن توفيق ... هنية، ضرة بلقيس أم يحيى، هي التي نصحتها، بعد أن مات أبوه منصور بأن تعيش معها وتترك يحيى في رعايتها وتعود إلى العمل، فوافقت بلقيس وقال:

- في بيتك هذا وضعت دبوساً في شمعة من شموع صينية زكريا، وطلبت يحيى من الله. فكيف لا أعيش معك وأنت لي كالأخت للأخت" (62)

فضلا عن ذلك تبرز علاقة الجوار الطيبة بين عائلة يحيى وعائلة الفنان (عبد الملك) ويفصلهما سياج، "عبد الملك يسكن البيت الذي يجاوز البيت الذي انتقلت إليه بلقيس ووحيدها يحيى للسكن مع هنية وأولادها، وعلى السياج الذي يفصل بين البيتين يوجد هاون نحاسي صغير...." (63).

فهذه الأمثلة تكشف عن النسق الاجتماعي الذي تجسد في تلك العلاقات الاجتماعية في المجتمع العراقي سواء داخل الأسرة الواحدة أو داخل المجتمع.

11.4. العمران:

لعل طبيعة البناء ومساحة البيوت والشوارع والبنائات الأخرى في أية مدينة تعكس طبيعة الحياة للمجتمعات الإنسانية ومن أجل تصوير الحياة بكل مفاصلها، لذا نجد الكاتبة وقد أعطت للوصف اهتماماً لاسيما وصف البيوت والمباني الأخرى، إذ يأتي وصف البيت الذي تسكن بلقيس وصفاً واضحاً لأجزاء البيت من غرف أو حديقة ونوع الباب والأشجار المزروعة في الحديقة، إلى جانب ذلك تقدم لنا الكاتبة، وصفاً لمحال العطور والكماليات والتحف المنزلية وبيوت النباتات (البيوت الزجاجية) والمشااتل:

"بعد دقائق وجدت نفسها تمثي بين المشااتل والبساتين التي تشاطئ دجلة من جهة الرصافة... طاب لها أن تدخل إلى بيوت النباتات الظلية المسقوفة بالنايلون، وأن تتشبع بدفء أنفاسها وهي تديم النبع وتنتج

بحضورها ... تستنشقها بلقيس وهي تمضي من بيت زجاجي إلى آخر" (64). ومن خلال هذه البيوت تكشف لنا الروائية أنواع النباتات المزروعة بكثرة في العراق.

وفي الرواية وصف للأحياء والشوارع يأتي على لسان السارد وهو يصف الطريق الذي سلكته هنية حين أرادت اخذ سرية يحيا لرميه في باحة كلية الطب: "وضعت هنية أم توفيق سرية يحيا في قطعة صغيرة وحملتها مشياً على الأقدام من حي تونس إلى حي القاهرة ومن هناك إلى شارع فلسطين بعربة حمل ثم بسيارة مصالحة من شارع فلسطين إلى جسر باب المعظم..." (65) فضلاً عن ذكر مسجد براثا وسجن أبي غريب ومقبرة الكرخ... وغيرها.

ومن هذه المعالم المدنية الحضارية تأخذنا الروائية إلى معالم أخرى تكشف عن بيئة أخرى مغايرة لملامح الثقافة المدنية مثل بيت الخرابة وبيت العراف، بيت الخرابة كان بيتاً قريباً من بيت بلقيس يقع في آخر الزقاق، وهذا البيت جاء ذكره على لسان كحيلة المعتوهة حين سألتها بلقيس عن وجهة يحيا حين ادعت كحيلة أنها رآته، فأجابته:

- في أي اتجاه ذهب يحيا عندما رأيته خارجاً في الفجر.

فأشارت باتجاه الخرابة التي تقع آخر الزقاق وقالت... (66) ولعل بيت الخرابة وبيت العراف (أبو المرامية) الذي يقصده الناس وقت إضاعتهم لشيء مفقود، تعد من الأماكن التي تثير خوفاً وقلقاً وتؤثت لفكرة المجهول، والبعيد القريب، الماضي الحاضر، الحقيقة والسراب.

وهذا البيت (بيت العراف) تشير كحيلة المعتوهة على بلقيس بالذهاب اليه من أجل الوصول إلى مكان يحيى من خلال ما يجدونه من معلومات لدى العراف، وموضوع العراف الذي يتم النظر في بيته إلى مرآة عن طريق طفل غير بالغ، من أجل معرفة مكان الشيء المفقود، حالة أو اعتقاد قديم مترسخ عند البسطاء من الناس أو الذي لا يملكون حيلة أمام الرغبة العارمة لمعرفة حقيقة شيء ما، لاسيما في حال كحال بلقيس الأم التي تبحث عن ولدها ولن تقف إلا وتجرب كل الحلول والسبل، فهذا المشهد (اللجوء الى العراف) انما يشكل نوعاً من النسق الثقافي المترسخ في ثقافة طبقة عامة الشعب، لاسيما الذين يصلون الى مرحلة لا يجدون فيها حلاً آخر سوى اللجوء الى مثل تلك المظاهر.

فالرواية سلطت الضوء على طبيعة الطبقة الكادحة في المجتمع وأشارت إشارات ضئيلة إلى طبيعة الطبقة الحاكمة أو الطبقة الغنية، لأن مهمة الروائية لم تكن عقد مقارنة بين طبقات المجتمع، وإنما حاولت ان تقدم صورة واضحة عن الشعب وواقعها المرير القلق المفعج الذي لا ينتهي من محنة الإلويديل في أخرى، لكنها ضمنت من خلال ذلك كله أو حملت كمسؤولية لسلطة وللاحتلال وللجهل والفساد.

الخاتمة:

يُعد البحث في ثقافة الشعوب وتقاليدها وعاداتها سبيلاً إلى الوقوف على أبرز خصائص الحضور الإثنوغرافي، ودراستنا (الحضور الإثنوغرافي في الرواية العراقية – رواية نبوءة فرعون اختياراً) خير مثال على

- هذا النوع من الدراسات التي تبحث في ثقافة الشعوب، ولعل النتائج التي تمخضت عن هذه الدراسة ستكشف عن أهم خصائص هذا الحضور الإثنوغرافي في الرواية مادة البحث، فمن أبرز نتائج دراستنا:
- تقوم الإثنوغرافيا على دراسة التراث الثقافي للشعوب من خلال الدراسة الوصفية لمختلف جوانب الحياة في مجتمع ما، من خلال الملاحظة المباشرة، وجمع المعلومات بعد استقرائها.
 - يعين البحث الإثنوغرافي على فهم أساليب مجتمع ما عن طريق الفحص الدقيق لأسلوب الحياة في كل جوانبه وضمن مدة زمنية قد تكون طويلة نوعاً ما.
 - قامت الرواية على توظيف التراث الشعبي، ولم يقتصر على جانب واحد، وإنما تنوعت مرجعيات الكاتبة ما بين الاستعانة بالحكايات الشعبية والأمثال وبين الموروث الشعري والغنائي.
 - التنوع في التوظيف أضفى على الرواية سمة الانفتاح على الأنواع الأخرى من الفنون والآداب.
 - تضمنت الرواية عدداً من الحكايات التي ترجع أصولها إلى الأدب الغربي إلى جانب الحكايات من الأدب العربي.
 - الرواية سلطت الضوء على مراحل مهمة من تاريخ العراق بدءاً من نهاية الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج والحصار وصولاً إلى الاحتلال الأمريكي، وهي مراحل تركت أثارها العميقة في مصير الشعب العراقي، حتى غدت الرواية رواية شعب عانى من واقع مرير ولحقب زمنية.
 - كشفت الرواية عن تلك العلاقة الروحية بالإله من خلال لجوء الإنسان إلى مصادر دينه في أغلب الأوقات، فضلاً عن بيان سلطة الدين ووضوح المعتقد، ودوره في تحقيق الاستقرار والسلام.
 - تضمنت الرواية في المستوى الثقافي عدداً من المحاور التي تمثلت في المعتقد والعادات والتقاليد والموروث السردى والشعري والغنائي والخبرة الشعبية والمأكل والملبس، كما تضمنت في المستوى الاجتماعي جانب العمران، فضلاً عن تقديم صورة واضحة عن العلاقة بين السلطة وطبقة عامة الشعب والعلاقات الاجتماعية داخل الأسرة العراقية.
 - عكست الرواية هموم الشعب العراقي في فترات صعبة، متمثلاً بمآسي الحرب وألم الفقد واليتم ومعاناة المرأة والطفل.
 - إن حجم التوظيف للموروث الشعبي في الرواية كان كبيراً، بحيث كشف عن ذلك الحضور الطاغى لسلوك الحياة، وهذا الحضور إنما يجسد الذاكرة العراقية وهي تختزن سياقات الحياة بكل أشكالها، وتؤكد حضوره العميق عبر التاريخ.

الإحالات:

- (1) ينظر: كلود ليفي ستروس، الأنثروبولوجيا البنيوية: ترجمة: مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، دط، 1977، ص 14.
- (2) ينظر: المرجع نفسه، ص 14.

- (3) ينظر: مبروك دريدي، الأنثروبولوجيا، (مقرر السنة الثالثة ل م د LMD): مطبوعة علمية في مقياس: ، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة سطيف2، 2014. 2015، ص5-6.
- (4) إيكه هولتراكس، قاموس الأنثولوجيا والفولكلور: ترجمة: محمد الجوهري وحسين الشامي، دار المعارف، مصر، ط1، 1972، ص15.
- (5) إيكه هولتراكس، قاموس الإنثولوجيا والفولكلور: ص15-16.
- (6) جاك لومبار، مدخل إلى الإنثولوجيا: ترجمة، حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997، ص14.
- (7) إيكه هولتراكس، قاموس الإنثولوجيا والفولكلور: ص16.
- (8) المرجع نفسه، ص15.
- (9) المرجع نفسه، ص15.
- (10) المرجع نفسه، ص15.
- (11) جاك لومبار، مدخل إلى الإنثولوجيا: ص13.
- (12) إيكه هولتراكس، قاموس الإنثولوجيا والفولكلور: ص19.
- (13) المرجع نفسه: ص18.
- (14) المرجع نفسه: ص18.
- (15) المرجع نفسه: ص18.
- (16) المرجع نفسه: ص18.
- (17) كلود ليفي ستروس، الأنثروبولوجيا البنيوية: ص15.
- (18) مبروك دريدي، الأنثروبولوجيا (مقرر السنة الثالثة ل م د LMD): المرجع نفسه، ص27.
- (19) مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثروبولوجيا: دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص22.
- (20) مبروك دريدي، م الأنثروبولوجيا (مقرر السنة الثالثة ل م د LMD): المرجع السابق، ص27.
- (21) المرجع نفسه: ص27.
- (22) ينظر: المرجع نفسه: ص28.
- (23) مريم دهان، المقاربة الأنثوغرافية تعريفها مميزاتها تقنياتها وعلاقتها بدراسات الجمهور: جامعة الجزائر3، مجلة تاريخ العلوم، العدد الثامن، جوان 2017، ج1، ص34.
- (24) المرجع نفسه، ج1، ص33.
- (25) المرجع نفسه، ج1، ص33.
- (26) مريم دهان، المقاربة الأنثوغرافية تعريفها مميزاتها تقنياتها وعلاقتها بدراسات الجمهور، مجلة تاريخ العلوم: المرجع السابق، ص34.
- (27) جمر أخضر، قراءات في الأدب الشعبي العراقي: علي حداد، مطبعة العهد، بغداد، ط1، 2017، 81.
- (28) محمود علي زيد، المثقف من وجهة نظر معاصرة: مطبعة منارة، أربيل، 2004، ص56.
- (29) ميسلون هادي، نبوءة فرعون: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007، ص64.
- (30) المرجع نفسه، ص190؛ وينظر: القرآن الكريم، سورة يس، آية 58.
- (31) ميسلون هادي: الموروث العراقي في رواية (نبوءة فرعون) التميمي، فاضل عبود، مجلة الموروث، العدد 16 – ديسمبر 2019، ص246.
- (32) فائزة أسعد، العادات الاجتماعية والتقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة: رسالة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم الاجتماع، الجزائر، جامعة مهران، كلية العلوم الاجتماعية، 2011 – 2012، 89.

- 33-ميسلون هادي : نبوءة فرعون، ص 27.
- (34) المرجع نفسه، 34.
- (35) المرجع نفسه، 56.
- (36) المرجع نفسه، 58.
- (37) المرجع نفسه، 19.
- (38) المرجع نفسه، 19.
- (39) المرجع نفسه، 105.
- (40) ينظر: نفسه، 23 ، 28 – 100 – 133.
- (41) المرجع نفسه، 58.
- (42) المرجع نفسه، 58.
- (43) ينظر: المرجع نفسه، 87، 54، 22، 105.
- (44)ميسلون هادي، الموروث العراقي في رواية (نبوءة فرعون): التميمي، فاضل عبود، مجلة الموروث، العدد 16 ديسمبر 2019، 243.
- (45) ينظر: التكريتي عبدالرحمن، جهمرة الأمثال البغدادية:، دار الرشيد – بغداد، ط1، 1986، ج3، 516؛ وينظر: محمد حيي ومحمد الأخضر، زهر الاكم في الامثال والحكم: اليوسي، الحسن، تحقيق: الدار البيضاء – المغرب، ج3، ص146.
- (46) ينظر: ص 26.
- (47) المرجع نفسه، 196.
- (48) ينظر: جهمرة الأمثال البغدادية: التكريتي، عبدالرحمن، دار الرشيد – بغداد، ط1، 1986، ج3، 516ص.
- (49) ينظر: ثمار القلوب في المشاف والمنسوب: الثعالبي، أبو منصور عبدالملك، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف – القاهرة، ط1، 1965، ج1، ص435.
- (50) ميسلون هادي، نبوءة فرعون: ص 134.
- 51-المرجع نفسه، ص 19 – 20.
- (52)ميسلون هادي: الموروث العراقي في رواية (نبوءة فرعون) لتميمي، فاضل عبود، مجلة الموروث الأدبي، ع16، ديسمبر 2019، ص249
- (53) المرجع نفسه، ص 28 – 29.
- (54) المرجع نفسه، ص52.
- (55) المرجع نفسه، ص28.
- (56) المرجع نفسه، ص138.
- (57) المرجع نفسه، 113.
- (58) ألف ليلة وليلة، الكتاب الرابع، الليلة (486)، المكتبة الشرقية، بيروت – لبنان، 2011، ص122 – 128.
- (59) نبوءة فرعون: ميسلون هادي، ص 214.
- (60)ينظر:كاندو: جويل، الذاكرة والهوية تر: وجيه اسعد، الهيئة العامة السورية للكتاب – دمشق، ط1، 2019، ص69 – 71.
- (61) ينظر: فضل صلاح، الواقعية في الإبداع الأدبي: القاهرة، 1978، ص240.
- (62)ميسلون هادي، نبوءة فرعون: ص 26 – 27.
- (63) المرجع نفسه، ص44
- (64) المرجع نفسه، ص47 – 48
- (65) المرجع نفسه، ص56

(66) المرجع نفسه، ص 179

المصادر والمراجع:

*القرآن الكريم.

- 1- ألف ليلة وليلة، الكتاب الرابع، الليلة (486)، المكتبة الشرقية، بيروت – لبنان، 2011.
- 2- إيكه هولتراكس، قاموس الإثنولوجيا والفولكلور، ترجمة: محمد الجوهري وحسين الشامي، دار المعارف، مصر، ط1، 1972.
- 3- التكريتي، عبد الرحمن، جمهرة الأمثال البغدادية، دار الرشيد – بغداد، ط1، 1986.
- 4_ تيلوين، مصطفى، مدخل عام في الأنثروبولوجيا، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011.
- 5_ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، ثمار القلوب في المشاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف – القاهرة، ط1، 1965.
- 6_ حداد، علي، جمر أخضر، قراءات في الادب الشعبي العراقي، مطبعة العهد، بغداد، ط1، 2017.
- 7_ دريدي، مبروك، مطبوعة علمية في مقياس: الأنثروبولوجيا (مقرر السنة الثالثة ل م د LMD)، كلية اللغات والآداب، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة سطيف2، 2014. 2015.
- 8_ زيد، علي محمود، المثقف من وجهة نظر معاصرة، مطبعة منارة، أربيل، 2004.
- 9_ ستروس، كلود ليفي، الأنثروبولوجيا البنيوية، ترجمة: د. مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، دط، 1977.
- 10_ فضل، صلاح، الواقعية في الابداع الادبي، القاهرة، 1978.
- 11_ كاندو، جويل، الذاكرة والهوية، تر: وجيه اسعد، الهيئة العامة السورية للكتاب – دمشق، ط1، 2019.
- 12_ لومبار، جاك، مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة، حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997.
- 13_ هادي، ميسلون، نبوءة فرعون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007.
- 14- اليوسي، الحسن، زهر الأكم في المثل والحكم، تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء، المغرب، دط، دت.

ثانيا : الدوريات :

- 1_ دهان، مريم، المقاربة الإثنوغرافية تعريفها مميزاتها تقنياتها وعلاقتها بدراسات الجمهور، جامعة الجزائر3، مجلة تاريخ العلوم، العدد الثامن، ج1، جوان 2017.
- 2_ عبود التميمي، فاضل، الموروث العراقي في رواية (نبوءة فرعون) لميسلون هادي، مجلة الموروث الأدبي، ع16، ديسمبر 2019.

ثالثا: رسائل الماجستير:

- 1_ أسعد، فائزة ، العادات الاجتماعية والتقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة، رسالة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم الاجتماع، الجزائر، جامعة مهران، كلية العلوم الاجتماعية، 2011 – 2012.